تاريخ استقبال المقال: 2015/02/14 تاريخ قبول نشر المقال: 2015/11/7 تاريخ نشر المقال:2015/12/01

اشكالية المصطلح عند محمد اركون

من قداسة النص الي أسطورية المعني

أ. خنوس نور الدين

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان الجزائر

ملخص:

يتعلق الموضوع أساسا بإشكالية المصطلح و استخداماته في المشروع الأركوني خاصة تلك الترسانة من المفاهيم الغربية التي استمدها من الاستشراق و حاول أركون ان يجد لها تربة خصبة في الفكر الإسلامي والإشكال الذي نود معالجته هل يمكن القبول بدعوي ان القران فكر أسطوري و هل الأسطورة أحد المفاهيم التي أسئ فهمها في الفكر الإسلامي ، فهل لأركون من الحجية العقلية ما يستطيع إقناعنا به بإبراز التماهي مع النص القرآني بدعوي القراءة الحداثية للنص، لنبين بعدها إن المشروع الأركوني في جعل النص المقدس مجرد مخيال مفعم بالرمزية.

Abstract :

This article aims to address the issue of the term and its uses in the project Arkoun .Especially those arsenal of Western concepts in trying to find fertile ground in

Islamic thought. the Story Idea that we would study if there is a saying that the acceptance may Coranet an ethical thought and legendaries are misunderstood concepts in Islamic thought, to authentic mental Arkoun as he could convince us by highlighting identification with text Quran under the pretext of playing the modernist text, and then shows that the Arkoun project makes the sacred text just plain symbolism.

مقدمة

إن كل دراسة واعية لظواهر الثقافة الإنسانية تتطلب الوقوف عند المصطلح و التوقف عنده وعند دلالاته ، ويصبح ذلك من المسائل العلمية المهمة ، بحيث لا يمكن استمرار البحث دون التملي فيها ،و تحري الضبط لهذا المصطلح، ذلك لأن الانسياق وراء البحث دون هذه الخطوة قد يفضى بالباحث إلى مسائل متفرعة ،و قد تكون هامشية ،أو ثانوية ،دون الظاهرة المقصودة .و عليه فكل دراسة لا تأتي بعد قراءة متأنية للظاهرة وللمصطلحات المعبرة عنها تمكن من تحديد الظاهرة و إعطائها تحديدا واضحا قد يفضى بالباحث إلى أهواء و مواقف مسبقة . لماذا هذا التقديم ؟لان الطرح الذي نود أن نلجه مع أركون يتعلق أساسا بمسالة المصطلح و استعمالاته، بل و محاولة استثماره أيضا ، في تفكيك و تحليل قضايا الفكر الإسلامي، ضمن ما سماه أركون باللامفكر فيه في الفكر الإسلامي .أو القضايا المسكوت عنها في هذا الفكر. متأثرا في ذلك بمناهج المستشرقين و أهدافهم في تطبيق مستحدثات الفكر الغربي و منتجاته، في التعامل مع هذا الفكر .فعلى الرغم من أن التنوير الذي تأثر به أركون و مجده و تغني بانجازاته رفض الأسطورة. و رفضوا إعطاءها أي قيمة علمية، و عدوها من القصص – الطفولية ،و نتاج الجهل و الخرافة كما قد ركز على ذلك منتسكيو، و ماكس مولر، و أوجست كونت وغيرهم من فلاسفة التنوير.إلا أن أركون يري في الأسطورة ،كمفهوم غير ما يراه هذا الفكر. لقد اعتبرها في مستوى القرآن بل إن القران يحمل بنية أسطورية كما قال "إن القران خطاب أسطوري البنية"(.[1])

إن اهتمام العلوم الإنسانية الحديثة وخاصة المعاصرة لاحقا بالأسطورة و الاهتمام بالمناهج التي ساهمت في تطويرها و التوسم في أن تكون احد طرق اكتساب المعرفة، باعتبارها مكون جوهري في الحضارة الإنسانية يقصدها الإنسان في كل عصر، من أجل أن تعينه في إدراك الأخلاق و العبادات ،و الطقوس ، و حتى أساليب الحياة و أدوارها . كل ذلك جعل أركون و هو المنبهر بما يراه علما أن يعيد الاعتبار لمفهوم الأسطورة المظلوم في الفكر الإسلامي،و المسكوت عنه أيضا لدرجة اعتبار القرآن مجرد أسطورة .فهي أحد الروافد التي تنشئ معرفة علمية ،بل و تساهم في تجديدها و تطويرها ، إنها معين يمكن الاستعانة به قصد بلورة معرفة بأحوال الاجتماع و السلوك و الفكر ، و الدين و السياسة ،مثلها مثل النصوص المؤسسة الأخرى ، التي يوليها المسلمون القداسة و التبجيل ،فقط لأنها كانت كذلك في كل المجتمعات المتعاقبة .

لكن المشكلة التي تطرح نفسها أمام أركون هي ذلك الاستخدام السيئ لمفهومها ،و اللبس والغموض و سوء الفهم، نظرا لعدم تبلور هذا المفهوم في اللغة العربية بالمعنى الأنتروبولوجي الحديث، و ذلك لسبب بسيط هو انقطاع الغرب عن الاستفهام الفعال في تطوير العلوم الإنسانية الحديثة ،لكن ما الذي يضير أركون في ان يكون هذا المصطلح بالذات هو المفهوم الوحيد الذي أسيئ فهمه ، في الثقافة و الفكر الإسلامي دون غيره من المفاهيم و الأفكار و المصطلحات الاخرى الكثيرة في هذا الفكر ؟ هل يريد استخدامه بطريقه ما في بلورة تركيبة مفاهيمية تخدم مشروعا ما؟ هل ثمه مشروعية منطقية ذات بعد أدبي تسمح بتماهي الأسطورة مع القرآن ؟ هل يمكن أن نضع خطوط فاصلة بين حقيقة القرآن و حقيقة الأسطورة ؟ ثم ما هي مجالات التداخل بين الأسطورة و الدين ؟و هل هي مبررات كافية ليقول اركون بالتماهي بين النص ألقرآني و النص الأسطوري ؟ هل الرمزية الموجودة في النص القرآني دليل أسطوريته؟ هل احتواء النص القرآني

علي مواضيع القصص يفضي مع أركون إلي القول بأسطوريته ؟ كيف أعاد أركون استنساخ المفاهيم الاستشراقية في معالجة قضايا الفكر الإسلامي ؟

.يجب ابتداء أن نحدد معنى الأسطورة و حجية قبول مبررات استخدام هذا المصطلح في تحليل قضايا الفكر الإسلامي.

الأسطورة:

تعني في قواميس اللغة الأجنبية كمصطلح إنها:حكاية شعبية أو أدبية تضم كائنات خارقة و إجراءات خيالية تتنقل بالأحداث، فهي تفسير لقصة رمزية تروى حادثة غريبة أو خارقة للطبيعة ،وتوجد في ثقافة فرعية ، تتميز بتنقلها و انتشارها على نطاق واسع ،وتأثير عميق ،نتيجة ما تنطوي عليه من حكمة و فلسفة وإثارة للاهتمام . كما يورد لسان العرب في معنى الأسطورة"" سطر و السطر :الخط ،الكتابة، سطر :السطر الصف من الكتاب أو الشجر أو النخل و نحوها و الجمع من ذلك أسطر و أسطار و أساطير ،يقال سطر علينا جاءنا بالأساطير .يقال سطر فلان على فلان إذا زخرف له الأقاويل و نمقه و تلك الأقاويل، الأساطير([2])،أي دون و ألف الخبر العجيب .و يضبطها مصطلح العلوم الاجتماعية ""إن الأساطير هي المعتقدات المشبعة بالقيم و المبادئ التي يعتقدها الناس و التي يعيشون بها أو من اجلها و يرتبط كل مجتمع بنسق من الأساطير ،يعبر عن الصورة الفكرية المعقدة التي تتضمن في الوقت نفسه كل نواحي النشاط الإنساني"([3]) .

انطلاقا مما سبق فان الأسطورة تشكيل مهم في التراث الثقافي الإنساني ،مهم في إلقاء الضوء علي تشكيل الحضارات الإنسانية ،لذا فتحديدها اللغوي و الاصطلاحي لا يجب أن يبتعد عن الاجتماع الإنساني ، إذ الأسطورة أحد الظواهر الثقافية التي تنتسب إلى واضعها الإنسان، فهي حكاية تقليدية تلعب الكائنات الماورائية أدوارها الأساسية .

لكن هذا التحديد قد نجده فضفاضا تدخل ضمن تحديده أصناف ثقافية إنسانية أخرى ،أو بالأحرى سياقات ثقافية أخرى ،فالقصة و الخرافة، و الحكاية ،كلها تدخل ضمن هذا التحديد ،و عليه يجب أن نحدد أن النص الأسطوري نص يختلف عن هذه النصوص، فهو نص ابتداء يحكي قصة الإنسان قبل الثقافة ، أو على الأقل هي ما يحكي حالة الخلق قبل مرحلة الثقافة ،أي تتلاءم الأسطورة مع الحالة الطبيعية ، سواء تعلق الأمر بالإنسان أو الكون ،تلونت هذه الأسطورة بالبيئة التي احتضنتها ،و بالإنسان الذي أنتجها ، و هي في جوهرها منها ما هو مكتوب ،و منها ما هو غير مكتوب ،يُتلقى و يتناقل مشافهة من إنسان إلى آخر، قصد التسلية ،أو التخويف أو لغرض –مصلحة ما– كما ينتقل من جماعة إلى جماعة ،أو من حضارة إلى حضارة، و من ثمة يمكن الاعتبار إن من الأسطورة ما هو نص ،غير أنه نص شفاهي ، يتلقي من الرجال مشافهة ،أي نص غير مكتوب، و بتقادم المراحل و الزمن تدخل الإضافات إلى الفجوات التي يتركها هذا النص، و قد تتحول عبر الزمن إلى نص مكتوب .

فالأسطورة إذن : تعبير أدبي عن أنشطة الإنسان القديم الذي لم يكن قد طور أسلوبه للكتابة التاريخية ،يعينه على تسجيل أحداث يومه ،فكانت الأسطورة هي الوعاء الذي وضع فيه خلاصة فكره ([4]) أما حينما عرف الإنسان الكتابة فقد بدأ في تسجيل هذه الأساطير التي رأى فيها القداسة و العلوم و الطقسية و التوجيه الإيماني العيني .

لكن حينما نلاحظ هذا الضبط لمعني الأسطورة نجدها تلمح إلي المعاني السلبية للأسطورة ،و هي المعاني التي في تصورنا ظلت مرهونة إلي أحكام مسبقة عنها و لم تتحرر منها، بيد آن هناك من قد أشاد بالأساطير و اعتبرها حكايات غريبة، لها أقوال شعبية تجعل من موضوعها الحديث عن الآلهة الأبطال والحيوانات وقوى الطبيعة .رموزها القوة و الإرادة اللامنتاهية و الميثولوجيا الخارقة ([5])، مواضيع هذه الأساطير الدين ،و الخلق ،و الوجود. لها وظائف اجتماعية أخرى تؤديها داخل النسيج الاجتماعي.فهي بوظائفها المختلفة الايجابي او حتى السلبي في الأساس البناء العقلي الإنساني اللغوي الشفوي والمكتوب المحبوك في صور رمزية و مجازية ، ملأ مساحة من الفراغ تركها الخوف أحيانا أو العجز أو التسلية و التوجيه. و نستنتج أيضا إن الأسطورة تحديد ا في مجال المعاني تتداخل و تشابك مع معنيين آخرين و لا يمكن ان نضع لها خطوط فاصلة لتداخلها في الوظيفة، والمحتوى والقدسية،و الطقسية و المجال .غير ان ثمة مجال يفرض نوعا من الالتباس، لابد من بيانه هو كالأتي :إن الأسطورة لها علاقة بالدين من حيث القدسية و الطقسية و الغيبية ،كما لها علاقة بالزمن من حيث التاريخ.؟

فأما علاقتها بالتاريخ؟

لأن الأسطورة نتاج إنساني محض ،تكون عبر التاريخ بالإضافة و الحذف ،كون الثقافة الإنسانية و تغلغل في طياتها . .فالأسطورة تسجيل تاريخي لفترة زمنية معينة خلت هذه الفترة من التدوين و اعتمدت على المشافهة ،تمثل في الغالب تاريخ شعب ،و تحكي قصته، ،حاضرة باستمرار، تروي مسائل الخلق والإله و الكون، و علاقاتها بطريقة مقدسة، فالأسطورة تروي كما قال، ميرسيا إلياد إنها " تروي تاريخا مقدسا، إنها تخبر عن حدث وقع في الزمن الأول، زمن البدايات العجيب([6]). تروي حدثا جرى في الزمن الخالي ،هو زمن البدايات، كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود، بفضل مآثر إجترحتها الكائنات العليا في زمن فائت،لا فرق بين أن تكون هذه الحقيقة كلية كالكون ،أو جزئية .كأن تحكي قصة نوع من النبات ،أو مسلكا يسلكه الإنسان أو مؤسسة ـّ.و من ذلك تحتم ضرورة الاستفادة من المادة الأسطورية كمصدر للمادة التاريخية ،فالأسطورة تعبير أدبي عن أنشطة الإنسان القديم الذي لم يكن قد طور بعد أسلوبا للكتابة التاريخية، يعينه على تسجيل أحداث يومه، فكانت الأسطورة هي الوعاء الذي وضع فيه خلاصة فكره عبر الزمن، والوسيلة التي عبر بها عن هذا الفكر في إطار الوقتية ،عن الأنشطة الإنسانية المختلفة التي مارسها بما فيها النشاط السياسي والديني والاقتصادي.

أما علاقتها بالدين :

فنجدها–الأسطورة– تقترب أيضا من مفهوم الدين من حيث إنها نص سردي يعتمد على القصة و على ما تحتويه هذه القصة من مكونات و تأثيرات تلقى بظلالها على القارئ، فلا تخص الأسطورة فردا معينا، فهي تحكي تقاليد و أعراف و ثقافة مجتمع و طقوس و طوطم، تابعة لمخيال اجتماعي تعكسه و تعكس بطولات أبطاله و أحداثه ،تحكي برسالة الغائب ،و تنسب الأفعال لكائنات ماورائية . فجوهر هذه الأسطورة لما تتمتع به من قوى خارقة و معجزات نافذة في اطار الزمن الذي لا ينقضي بانقضاء سرد حوادثها ، بل تأثير الزمن مستمر القدسية متواصل الحضور من خلاله تلقي الأسطورة بضلالها المقدسة.و الطوطمية والطقوس و هو عين جوهر الدين.

فالدين يمكن ان نعرفه بتعبير دوركايم انه نسق موحد و متكامل يشتمل على العقائد و الممارسات المتصلة بالأشياء المقدسة ،تلك العقائد و الممارسات تمارس في مجتمع صغير اخلاقي، يسمى الكنيسة يتكون من قسمين :

العقائد :و هي عبارة عن حالات فكرية او تصورات ذهنية.

العبادات : و هي طرق عملية للسلوك يقوم بها الانسان حيال الاشياء المقدسة([7])

و إذا نظرنا إلي مميزات الأسطورة التي تتقاطع مع كل من مجال الدين و التاريخ .و من خلال ما ذكرنا يتبين ان هناك نقاط مشتركة توحي بكثير من التداخل يلتقي فيها كل من الدين و الأسطورة و التاريخ فهل إذا علمنا أن الدين من ضمن محاوره ا القصص القرآني ، الذي حدث في التاريخ وإذا علمنا أن الأسطورة جزء من تاريخ غير مدون، و بالتقادم زيدت له الأحداث، فهل القرآن بتعبير أركون الذي ذكرنا سلفا يحكي أساطيرا و ما تفاسير القرآن إلا إضافات أسطورية؟ و ما قصص القران إلا نسخ لقصص يهودية أو صرانية ؟ فهل في هذا الالتقاء حجية لأركون في القول بالتماهي بينهما؟هل احتواء النص القرآني علي تعابير رمزية و مجازية يوحي بالالتقاء مع الأسطورة ؟

نحاول أن نبين أن ما ذهب إليه أركون في الاهتمام ببعض المفاهيم والمصطلحات و محاولة تبيئتها ،هو في الأساس خدمة هدم مجانية لأسس التصور الإسلامي، و هدم لأعمدة هذا الفكر ،متفقا و إرادة الاستشراق في تحقيق هذا الهدف.عبر مساحات الفكر الواسعة و نظرتنا هذه تؤكدها منطلقات أركون و والنتائج التي أراد إقرارها .ولنسمح لأنفسنا إن نناقش هذه التساؤلات التي حاول اركون ان يؤسس من خلالها لمكون معرفي نراه غريبا عن البيئة المعرفية في الفكر الإسلامي، و نستهل هذا الطرح من خلال ما يلي : ان التعامل الأركوني مع النص القرآني يرتكز على مجموعة من المسلمات التي تختلف جذريا عن المسلمات الأولي التي انطلق أو ينطلق منها أي باحث تربي في أحضان الثقافة التقليدية في مقابل الثقافة الوافدة .

فأول مسلمة يرتكز عليها أركون: أن الكتب السماوية تحمل ذات الصدقية و لا اختلاف بينها.على هذه الفكرة "" يبني مشروعه الذي يحلم به"" إن القرآن – كما الأناجيل – ليس إلا مجازات عالية تتكلم عن الوضع البشري ، إن هذه المجازات لا يمكن أن تكون قانوناً واضحاً، أما الوهم الكبير فهو اعتقاد الناس – اعتقاد الملايين – بإمكانية تحويل هذه التعابير المجازية إلى قانون شغال وفعال، ومبادئ محدودة، تطبق على كل الحالات وفي كل الظروف([8].) انه وهم بتعبير أركون أن نجعل من القرآن قانونا، و مبادئ ،لان" المعطيات الخارقة للطبيعة والحكايات الأسطورية القرآنية سوف تُتلقى بصفتها تعابير أدبية أي تعابير محورة عن مطامح ورؤى وعواطف حقيقية يمكن فقط للتحليل التاريخي السوسيولوجي والبسيكولوجي اللغوي "أن يعيها ويكشفهما ([9]")

ومنه فتناص الكتب المحرفة مع الفكر الأسطوري يعني في المنطق الأركوني تماهيها بالضرورة مع القرآن ، فهذه الرؤية بالذات هي في الاساس مخرجات تبرز تأثر أركون في دراسته للقرآن الكريم بمنهجية البحث العلمي السائدة في الغرب،و التي أسس لها الاستشراق سلفا ،و انبهاره بالمناخ العلمي والفكري الغربي، خاصة ما تعلق بالعلوم الإنسانية والاجتماعية والتي كان منها تطور دراسة الدين وما يسمى داخل إطارها .

التطبيق المنهجي لهذه العلوم في دراسة اليهودية والنصرانية، وذلك بدراسة النصوص الدينية المقدسة في اليهودية والنصرانية.التي من أهم نتائجها بيان الكتابة المتأخرة للأناجيل مما يذكي فرضية ألزيد و التحريف و النقص و الإخفاء ما يكرس تدخل الأيديولوجيا ، لكن لو كانت هناك مقارنة من حيث الدلالة و المحتوى و الصياغة النصية بين الأسطورة و باقي الكتب السماوية الأخرى المطعون في صحتها و سندها لكان الأمر جائزا، فالنص التوراتي ""تتشابك فيه الحقيقة و الأسطورة و الخرافة و الخيال ،و علي كثرة ما فيها من شعائر و طقوس سحرية أو أساطير و ممارسات فان بعض ما جاء فيها لا يتفق و العقل السليم و المنطق ، و فيها ما هو مناف للعدل و الإنصاف و قواعد الأخلاق لما فيها من شدة المبالغة "[10]"

و انظر إلي ما ورد في سفر النبي يوشع ""يا شمس قفي علي جبعون و يا قمر علي وادي ايالون فوقفت الشمس و ثبت القمر إلي أن انتقمت الأمة من أعدائها،""فهل تري أي وجه للمنطق أو أي احترام لقوانين الطبيعة أو استحضار لقوانينها، حيث نلاحظ إن لا اختلاف بين هذا النص و بعض الأساطير الأخرى

لكن الأمر بالنسبة للقرآن مختلف علي الرغم أن محاولات أركون تهدف إلي المماثلة بين الكتب المقدسة الثلاث إضافة إلي استهجان الرؤى التي ترى النص القرآني مقدسا لا يمكن دراسته.مستأنسا برأي فرانسيس بيكون في كتابه الأورجانون حينما يقول"" قد لا أعتقد بجميع القصص و الأساطير التي جاءت بالكتب الدينية ولكن لا يمكن أن أعتقد بعدم وجود عقل مدبر لهذا العالم.

إن القليل من الفلسفة ينزع بعقل الإنسان إلى الإلحاد ولكن التعمق فيها ينتهي بعقول الناس إلى الإيمان لأن عقل الإنسان عندما ينظر إلى الأسباب الثانوية المبعثرة قد يتوقف عندها ولا يتجاوزها، ولكن عندما يشاهد تسلسلها و اتحادها، و اتصالها بعضها بعضا ينتهي به ذلك إلى الإيمان بوجود العناية الإلهية"".إن الكتاب المقدس الذي يعتبره المسلمين اصدق كتاب ،و لا يأتيه الباطل من أي اتجاه يصبح عند أركون كما الأناجيل ، هذه الأناجيل التي يبدو أن أركون نسي أن المؤمنون بها أقروا أنها كتبت بعد الأنبياء الذين أرسلوا بها، و هي في الغالب كما قلنا لم تسلم من التحريف و ألزيد و الحذف ،

اما المسلمة الثانية فيضيف أركون أن ما يتضمن في القرآن من حكايات أسطورية لا يرقى إن يصل إلى صرامة القانون و تجريديته،بل خطابه ذا بعد مجازي أسطوري فالقرآن حكايات أسطورية في قوالب تعبيرية أدبية محورة لا ترتقي الي صرامة القوانين ووضوح بنيتها ،و مادامت كذلك توصف بوصف المجاز فهي تشترك مع التعابير الرمزية الأسطورية.

ما يعني منهجيا إن محتوى القرآنن –مجازي أسطوري–ما سينقلنا من المشروعية الدينية للمعرفة التي كانت سائدة في الفكر الإسلامي ،أي ثقافة النص و قدسيته –علي رأي الأشاعرة القبيح ما قبحه الشرع و الحسن ما حسنه الشرع– إلى المشروعية الأسطورية للمعرفة ،باعتبار أن الأسطورة مسار للمعرفة أو قاعدة لها . ليس على طريقة الفكر التنويري الذي رفضها لأنها تفكير خرافي ،بل على طريق مخرجات ما سمي مجازا عند أركون المناهج العلمية في العلوم الإنسانية.تلك البدايات العلمية في مضامين الترحال الاستشراقي الهادف الي دراسة الأساطير و بناها في المخيلة الشعبية ،

المسلمة الثالثة إن تشابه بعض المضامين لا يعني التماهي، تماهي النص القرآني مع الأسطورة ، اذ فعلى الرغم من التشابه الموجود الذي نراه بين بعض مضامين نص القرآن والمضامين الموجودة في الأسطورة لم

يأتي القرآن ليصدقها ،لأنها ليست من الكتب التي سبقت (التوراة و الإنجيل)، و من غير المعقول أن يكون القرآن مصدقا للأساطير ،و إلا منطقيا لا مبرر لوجوده أو إرسال الرسول به.

إن طبيعة القرآن تدعو إلي الوحدة الإيمانية ،وحدة المصدر، ووحدة الاتجاه،ووحدة الآمر،ووحدة الطريق ،ثم الكل بعد ذلك في انسجام واتساق ،فهل تحقق الأسطورة كل أسطورة و أي أسطورة هذا الانسجام والتكامل.لقد عرفنا تاريخ الأساطير التي اكتشفها الإنسان إن التباين في تركيبها و تشريعها و طقوسها هو العلامة البارزة التي لا يختلف حولها، فأسطورة النيام السبعة مثلا في أفسس كما تذكر الموسوعة البريطانية وهم أبطال هذه الأسطورة وعددهم سبعة (أو ثمانية) من المسيحيين الذين اختبئوا في كهف وأغلق عليهم قرب مدينتهم .

في أفسس و ذلك خلال اضطهاد المسيحيين 250 خلال حكم الإمبراطور الروماني ديكيوس . و كان نومهم في ذلك الكهف لفترة طويلة .هي القصة الكاملة التي قصها القرآن ولقد عمل فراس السواح على مقارنة هذه الأسطورة و النص القرآني في قصة أهل الكهف ،بين الأدب السرياني و القرآن .ولقد قادته هذه الدراسة إلى انه علي الرغم من التشابه الموجود بين محتوى الأسطورة و محتوى القصة في القرآن الكريم إلا أنه لم يقل بأسطورية القرآن، واهم هذه الأسباب التي ذكرها تعليلا للاختلاف إن القصة جاءت قبل القرآن ،فهي أولا كأسطورة متميزة عليه من حيث الزمن .

و عليه فإذا كان هناك تشابه فهو تشابه للمحتوى ،يعود لصدقية حدوث الواقعة، و ليس لأي شيء أخر ،فالقرآن يصدق الوقائع التي حدثت بالفعل .و لا يصدق الأساطير المنسوجة حولها، و هو أفضل الرأي الذي نراه .أي أن القرآن ما جاء ليصدقها كقصة أسطورية تحمل من عناصر الخرافة ما يتنافى مع العقل ،بل كواقعة حدثت بالفعل.إذ القرآن لا يتنكر للوقائع باعتبارها جزء من التاريخ،و إنما يصدق الأحداث التي حدثت فعلا، لكنه أيضا يتنكر للأساطير الخرافية التي نسجت حولها ،وإذا كان القرآن ذكر الأسطورة بمعنى الحكاية الكاذبة، أو الأحاديث الملفقة التي لا أساس لها في الواقع.

فلكي فقط يشير إلي إن هذه الأساطير الماضية كانت لدى الأوّلين، وهي جزء من الواقع الثقافي الذي كان سائدا. لان القرآن لا يمكنه القفز علي ذلك الواقع الفكري الذي نشا فيه، موضحا أن هذا المجتمع الجاهلي هو مجتمع يغلب عليه التفكير الأسطوري أو الفكر الميثي و يعرض لذلك من قبيل الحجاج العقلي و الإيماني لا من قبيل السطو علي ما كان موجودا قصد إعادة إنتاجه، بل من قبيل دحضه و بيان زيف.

و بناء علي ما سبق إن الواقعية في النص القرآني تقابل الخيال في الأسطورة ،إذ النص القرآني ليس إيحاء أسطوري تناقله المخيال الاجتماعي ،و لا ينبغي أن يكون كذلك،خاصة ونحن نعلم على وجه الإجماع أن كل المجتمعات الحاضرة و البائدة يحضر في إحساسها أن الأسطورة مهما كانت قريبة من الحقيقة فإن الخيال و المبالغة و حضور الكائنات الخارقة، لها وجود قوي وحضور فعلي داخل نسيجها.

وعليه فحينما نتوغل داخل هذا النسيج خاصة وحينما نتفحص الآليات التي يشتغل من خلالها الوعي الأسطوري عند الشعوب البدائية ، يتجلى لنا أن هذا الإبداع كتعبير حقيقي من هذا الإنسان ،هو في الأساس محاولة منه تفسير تلك الفجوة بينه و بين قوى الطبيعة .تلك القوى التي تفرض عليه نوعا من اللااستقرار النفسي والقهر الاجتماعي و حتى الطبيعي ،فهي –الأسطورة–بهذا التفسير الخيالي في الغالب

تعكس الجانب اللامعقول من تفكير الإنسان ، لذلك نجدها مؤلفة من غرائب الوجود،موغلة في الخيال المقصود عند أركون .

أما المسلمة الثالثة إن القرآن يحتوي عناصر ميثية رمزية تحمل على الدافعية و الإبداع هي ذاتها ما نجده في الأسطورة .و بالتالي هذه العناصر الميثية هي التي تدفع إلي التغيير الاجتماعي و تضيف إلي حركة التاريخ، و تؤجج الصراع من خلال ما يلعبه الرمز الميثي في صياغة نماذج مثالية في السلوك، أو التصور، فالبطولات التاريخية التي يصنعها الصحابة و الأشكال التي تحمل دلالات رمزية في الإيثار و التقشف و الحب اللامحدود للرسول، و الصور الخيالية للتضحية، و التفاني ،كلها أشكال تخلق دافعية عجيبة في النفس ،لا يمكن أن يصنعها إلا مخيال غارق في الرمزية، لكن هل لان القرآن احتوي علي هذه الرمزية فهو مفعم بالأسطورية؟ إن الإنسان عند أركون لا تحركه فقط الحوافر المادية و الاقتصادية و إنما تسيره أيضا الصور الخيالية، فكثيرا ما تبتهج الناس و تخرج إلي الشارع لمجرد أن شخصا قد ضرب على وتر المخيال الاجتماعي ([11])

إذا كان الإنسان خاضع في حركته للمخيال، فان الأسطورة جزء من المخيال، و لا ضير إن تتحكم الأسطورة في جزء من سلوك هذا الإنسان و فكره .و يصبح القرآن بهذا التعبير جزء ا من المخيال ، فبدل أن يكون القرآن مرجع يستند إليه الأفراد في سلوكهم ،يصبح على هامش الذاكرة الاجتماعية، قد يحركهم بلا ضوابط ،و قد لا يحركهم. فيصبح من المهم عند أركون ضرورة القيام بعملية تفكيكه للترتيبات الأيديولوجية . و أحلام اليقظة الجماعية و الهلوسات الفردية التي تحيلنا إلى الإسلام . كدين و كتراث فكري إلى مغادرة كل أيديولوجيا كبرى تعمل على تحريك المتخيل الاجتماعي ([12])

لكن ما يجب علمه أن القرآن وقائعه يومية معاشة تعالج الانحراف في خط السير كما حدث في غزوه احد([13]) و تعاتب على الفعل كما في حدث في الأسرى يوم بدر([14].) وتصل إلى مكنونات النفس تجليها كما حدث مع زيد[15].و يوجه السلوك مثل ما حدث مع عبد الله بن أم مكتوم أو في المجادلة، فالخيال تصدق مقولاته مع النص الأسطوري و ليس مع النص القرآني . و القول بأسطوريته لا يعني إلا انه نص تمتزج به الخرافة بالحقيقة.و ينتصر فيه الخيال على الواقع ، و غلبة الشك على اليقين .

-إن القول بأسطورية القرآن هدفه من ذلك الوصول بالقارئ في أقل تقدير في نظر أركون إلى المماثلة بين القرآن و ما هو أسطوري، ما سيسمح أن تنزع الثقة بالقرآن الكريم و قداسته ،من منطق كما قال "أنه نص أسطوري "([16]) .

يعرض أركون أن النص القرآني نص بشري في اللحظة التي تكلم بها لأول مرة لكن هل يجب للنص القرآني أن يكون نصا أسطوريا أو أسطورة ليتسنى لنا نقده ،بل قراءته قراءة متفتحة على كل المناهج ،و الآليات التي أنتجتها ثقافة النقد النصي في البيئة الغربية .هذه القراءة التي تريد ان تتخفف من ثقل الهالة القدسية التي يعتقد أركون أن شراح و مفسرو القرآن قد أنتجوها . حينما يصبح القرآن أسطورة عند اركون نتمكن من تحديد المعاني و تأويل المقاصد .

و ترتيب الأفكار من جديد أما حينما يبقى القرآن بحلته و بعليائه و بمكانته عند معتنقى ديانته ،فإن ذلك مانع من تقبل هذه القراءة التجديدية الثورية عند أركون . مع ما يصاحب من زوال القدسية للنص القرآني من إسقاط للأحكام . أحكام الردة الزندقة أو المروق .

لقد حاول أركون إعادة المتخيل العربي الجاهلي وإحيائه مرة أخرى ((إن هذا إلا أساطير الأولين)) أكتتبها فهي تملى عليه بكرة و عشية ..يعلم أركون و يخاف ما يصيبه من نقمة .فهو يتمنع داخل عباءة العلم و رداء البحث ،من أن تطاله الأوصاف و تكال له التهم ،فنجده يعرض هذا التخوف في قوله(أن وصف المعارضين يختزل إلى كلمة واحدة هي المشركون لقد رموا كليا و نهائيا و بشكل عنيف في ساحة الشر و السلب و الموت دون أن يقدم النص القرآني أي تفسير أو تعليل لهذا الرفض و الطرد ([17])لأنه يعلم بطلان ادعائه، فالقرآن متفرد في طرحه و مواضيعه ،ولا يشبه ما كان موجودا في بيئته يرى "عبد المالك مرتاض" أن الأساطير عند العرب أوجزت، وأن الشخصية الأسطورية العربية باهتة الملامح، شاحبة البناء، غامضة التمثل([18]) فمن أي الأساطير أخذ القرآن ،ثم هل هي أسطورة واحدة ام مجموعة أساطير ،خاصة إذا كنا نعلم انه يوجد من الأساطير، بقدر ما يجد من الثقافات و الشعوب .، ولكل امة من الأمم أساطيرها التي تجيب عن الأسئلة التي تطرحها. .

ولعل أركون ليس الوحيد ممن تكلم بهذا الطرح بل نجد من أمثال نصر حامد أبو زيد من يعززون الطرح الأركوني في قراءة النص القرآني و القصة في القرآن من خلال بناء مناخ ثقافي ساهم في إثراءه أركون بدعاوى هذه الأسطورية. لقد ورد في كتابه ،النص السلطة .الحقيقة . و ""فيما يتعلق بالنصوص القصصية الشفاهية يمكن القول أن التناص معها اعتمد على آلية الاستيعاب و آلية التوظيف من خلال سياق يعيد تأويلها تأويلا ناطقا بإيديولوجية النص، أما المرفق من النصوص الدينية فقد اعتمد آلية انتقائية التي تقبل الأجزاء . و تعيد توظيفها و تأويلها أما الأجزاء المرفوضة فتم تصنيفها في خانة الانحراف أو التحريف الناتج عن الضلال و من السهل على النص أن يقوم بالتأويل و التصنيف اعتمادا على أنه نص نابع من المصدر نفسه و أن إحدى مهامه من ثم تصويب الانحراف إلى أحدثها البشر في أصوله السابقة([19]) و هي دعوى إلى أن القرآن قد أخذ من ما كان موجودا في الثقافة المحيطة به ،كل الثقافة بما في ذلك الكتب الدينية السابقة .

غير أن الحفريات و الآثار التي طالت هذه الحضارات و الأمم لم تنبئنا بما هو موجود في القصص القرآني .هكذا تتوسع هذه الطروحات الأركونية المدعومة من تيارات و مذاهب مختلفة و كأن بعضها يسند بعضا و يشد بعضها علي أزره حتى لا يبقى المشروع الأركوني صوتا نشازا يغرد خارج السرب لكن على الرغم من ذلك إلا أن إشكالية توظيف المصطلحات الغربية ضمن منظومة الأفكار الإسلامية التابعة لثقافة النص،تبقى تطرح نفسها لا تنتهي في إشكال و مواضيع أخري ، هذه المحاولة التي تندرج ضمن محاولات الاستشراق إغراق الفكر الإسلامي و ثقافته بمصطلحات ومناهج لا تخدم الفكر الإسلامي بقدر ما تشوش انتماءه، مع مساس بقدسيته ابتداء من خلال نزعها بمجرد تشبيه القران بالأسطورة، فيه انتقاص من قيمة القرآن ،فقد كان العرب يستقبحون هذا التشبيه- كان اقول " ان السيف أمضى من العصا"" فعلي الرغم من إن الأمر مجرد تشبيه غير انه انتقاص من قيمة السيف هذا ناهيك عن القول ببشريته او حتي ربطه بمعطيات الخرافة و الأسطورة .

لا يمكن أن نغفل التوظيف الإيديولوجي للمصطلح بل ينبغي أن نلتفت في قراءة المنتوج الأركوني إلى الحضور الأيديولوجي و التوظيف النفعي الذي يصطبغ به هذا الفكر من خلال اقتحامه لمفردات لغوية لا تلتقي مع خطوط الفكر الإسلامي لقد حاول غريماس أن يبين منهجيا ان توظيف الأسطورة في الأدب هو إعادة تنشيط للمعني وذلك بإعادة إدماج لفعل التدليلle sémantisme في البنية الشكلية مع الاختلاف

الكبير بالطبع ،ان الحكايات الادبية تعبر عن أنظمة من القيم المفردنة بينما الأساطير فهي تعبر عن نظم القيم الاجتماعية([20])

هذا من حيث توظيف و ا استعمال الأساطير في تنشيط المعاني الادبية او بغية زيادة التدليل ذى الابعاد المنهجية فكيف باستعمالها علي مستويات الفكر ، انه ما من شك ان أي مفكر كيف كان مستواه الا و تحصر الخلفية الفكرية و الإيديولوجية في أعماله و لعل هذا ما يفسر إلحاح أركون و مطالباته المتكررة توظيف المصطلحات الغربية في معالجة مخرجات الثقافة و الفكر الإسلامي قصد التمكين لها لترتبط قسرا بقضايا و ظواهر تنتمي الي هذا الفكر و هو التقليد الاستشراقي اذ كما قد علمنا إن المستشرقون ينطلقون من خلفيات علمانية لمعالجة قضايا و ظواهر في الفكر الإسلامي

لا يجب ان نتجاهل أن ما يقره أركون يتعارض أساسا مع ضرورة الارتباط الدلالي و العضوي و الوظيفي و حتى ألمطابقي بين الظاهرة و المصطلح المعبر عنها و هذا لا يمكن تجاهله البتة ، غير أن أركون يتجاوز هذه الأوليات ليؤسس لمصطلح الأسطورة ليكون معبرا عن القرآن و قصصه .حينما نعالج قضايا لها صلة بالفكر الإسلامي دون إن يكون له في هذه المنظومة الثقافية آو في القاموس اللفظي الذي يؤطر فكرها أي وجود أو صلة ،نحن في هذه اللحظة ننقش رسومات علمية علي ماء البحر، إن زراعة مصطلح ميت في جسم الفكر الإسلامي المتحرك و المتجدد ليس تطويرا لهذا الفكر بقدر ما هو إفقادا لمناعته تمهيدا لموته ، و هذه التجربة يكررها أركون ،عسي آن تنجح لكن هيهات.. لقد لاحظنا أن الفكر الإسلامي لا يستجيب لهذا المصطلح وظيفيا بحيث نشط مناعته الداخلية و لفظه كما تلفظ الاجسام الغريبة عن تربة المنظومة المصطلحية للفكر الإسلامي

التراكم الدلالي:

إن موانع استخدام هذا المصطلح في الفكر الإسلامي للتعبير عن قضايا في هذا الفكر ذاته مرده إلي التراكم الدلالي الذي يحمله علي عاتقه طيلة عصور عبر تعدد و تنوع ثقافي ، لقد حمل المصطلح الأسطورة ايهامات شتي قضت عبر الأزمنة المتعاقبة و المختلفة تحوير و تدوير لهذا المصلح ناهيك عن استخداماته السيئة التي تصل في بعض الأحيان لان تكون متباينة و متضاربة بين الحقب التاريخية السابقة و اللاحقة ان لم يكن هذا الاختلاف بين أبناء الثقافة الواحدة .

لكن على الرغم من ذلك إلا أن إشكالية توظيف المصطلحات الغربية ضمن منظومة الأفكار الإسلامية التابعة لثقافة النص،تبقى تطرح نفسها باستمرار لا تنتهي إلا في أشكال و مواضيع أخري ، إن هذه المحاولة التي تندرج ضمن محاولات الاستشراق إغراق الفكر الإسلامي و ثقافته بمصطلحات ومناهج لا تخدم الفكر الإسلامي بقدر ما تشوش انتماء الفكر الإسلامي ، مع مساس بقدسيته ابتداء من خلال نزعها بمجرد التشبيه و المفاضلة فتشبيه القران بالأسطورة، فهي عملية انتقاص من قيمة القرآن ،فقد كان العرب يستقبحون هذا التشبيه- " إن السيف أمضى من العصا فعلي الرغم من إن الأمر مجرد تشبيه غير انه انتقاص من قيمة السيف هذا ناهيك عن القول ببشريته أو حتى ربطه بمعطيات الخرافة و الأسطورة .

و انظر إلي ما قاله نصر حامد ابو زيد ذاته ""لا خلاف إن الإسلام بالفعل قد حرر الإنسان من سيطرة الأوهام و الأساطير على عقله ،وحرر وجدانه و عقائده من كل ما يعوق حريته ""([21]) فلماذا نعيد هذه الأوهام من أبواب شتى

خاتمة:

لا بد أن نشير إلا أن فعل تبيئة المصطلحات في الفكر الإسلامي تعد أهم معاول الهدم التي تفت من عضد هذا الفكر، و ما عجز الاستشراق عن فعله فان مفكرين مثل اركون تراهم في محاولات يائسة القيام بهذا الدور و سيظل إشكالية المصطلحات الغريبة في الثقافة الإسلامية في سجال دائم بين التبيئة والرفض و سيظل الفكر الإسلامي يدافع عن ذاته من خلال مناعة ومصانة ثقافية مركوزة فيه أصلا

الهوامش:

---

[1] – محمد اركون(1999)الفكر الاسلامي نقد و اجتهاد ترجمة هاشم صالح مركز الانماء القومي بيروت ص175

[2] – محمد ابن منظور،(2003) لسان العرب، الجزء 4 ص 363- 364 -365

[3]- محمد زكي بدوي (1993) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ،بيروت مكتبة لبنان ، الطبعة الجديدة ص 244

– [4]حسن احمد خليفة (1988) الاسطورة و التاريخ في التراث الشرقي القديم دار الشؤون الثقافية العامة ص 23

[5]- تركي علي الربيعو (1986)، الإسلام و ملحمة الخلق و الأسطورة، المركز الثقافي العربي، بيروت،طبعة ص120

[6]-- ميرسيا إلياد،(1995)(ملامح من الأسطورة ، ترجمة حسيب كاسوحة،منشورات وزارة الثقافة السورية دمشق.ص11

[7]- *يراجع محمد الخطيب، الاثنولوجيا دراسة عن المجتمعات البدائية، دار علاء الدين للنشر، ب ت، ص 25*

[8] – محمد أركون،1990 تاريخية الفكر الإسلامي دار الساقي، ترجمة هاشم صالح، ط1، ص299

ص191[9] – محمد اركون (1987) (الفكر الإسلامي قراءة علمية ، ترجمة هاشم صالح مركز الانماء القومي بيروت

[10] – ناصر إبراهيم،(2005) التوراة بين الحقيقة والأسطورة والخيال، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا ، ص 10

[11]- محمد أركون(1983)،أين هو الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي بيروت ط 2 ص 74

[12]- محمد أركون تاريخية الفكر العرب(1990) ترجمة هاشم صالح مصدر سابق ص 61

[13]-سورة أل عمران الاية 120 -186

[14]-سورة الانفال الاية 15 -19

[15] -سورة الاحزاب –الاية 36- 42

[16] – محمد أركون الفكر الإسلامي نقد واجتهاد ص 85 ، 86 مصدر سابق

[17]- محمد أركون الفكر الإسلامي ،قراءة علمية مصدر سابق ص 96

عبد المالك مرتاض الميثولوجيا عند العرب: دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة [18] الدا ر لتونسية للنشر 1989 ص 88 -

[19] نصر حامد أبوزيد النص ، السلطة ، الحقيقة المركز الثقافي العربي بيروت 1995 ص 101

Gremiase semiotique et sciences social –paris. Seuil 1-p 18976 - [20]

نصر حامد ابو زيد نقد الخطاب الديني سينا للنشر القاهرة ص 80 ص